

الفكر العربي أمام تحديات العصر أفكار للنقاش

فهمية شرف الدين(*)

1 - بعض الملاحظات التمهيدية

1 - 1. لم يكن على الفكر العربي أن يجيب عن تساؤلات بهذه الصراحة كما هو الحال عليه الآن.

فالأسئلة ليست كثيرة فحسب، بل هي متسفرة وقاطعة... وتدفع بالمهتمين بأمور الفكر والثقافة في العالم العربي إلى أحد من موقفين: إما أن يتقبلوا الإجابة الموزعة عالمياً والوافدة في علبة كُتِبَ عليها تاريخ الصنع وتاريخ انتهاء المدة، وإما الهروب إلى الأمام والدخول في غيبوبة الإجابات الميتافيزيقية التي تمنح السلام لكنها لا تساهم في تفكيك الإشكاليات وحلّها.

هذه الوضعية القديمة/الجديدة التي رافقت الفكر العربي منذ أول صدمة له مع الفكر الغربي الوافد إلينا على متن سفن بونابرت لا تزال تراوح مكانها، بل إنها إزدادت عمقاً وتحولت إلى ثنائية(**) يصعب حلّها، تتمثل في هذه العلاقة الملتبسة والمتأزمة في آن، بين الأنا العربية «المتخلّفة» التي تراودها أحلام الرفاه والتقدم، وبين الآخر الغربي «المتحضّر» الذي يمارس استعلاءه وهيمنته في جميع المستويات.

وقد تجلّى هذا الالتباس في مسألة الرفض والقبول التي كانت تتجادل على أرضية الرغبة والحلم بإنجاز التقدم كما حصل في الغرب، فتؤسس لعملية القبول من جهة، ومن جهة أخرى كان الالتباس يتحوّل إلى أزمة عندما يتراكم الإحساس «بالمهانة

(*) أستاذة في معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية.

(**) كثيرون هم الذين كتبوا عن هذه الثنائية، انظر على سبيل المثال لا الحصر: «الفكر العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين» قضايا فكرية، الكتاب الخامس والسادس 1995.

والغلب» كنتيجة مباشرة للسيطرة التي أسسها الهجوم الاستعماري الغربي على المنطقة. فيغذي هذا الالتباس أفكار الرفض ويؤسس للتعسف في استعمال الهوية.

وبين القبول الذي يجد تعبيراته في الإيمان بالحدثة والتحديث، وبين الرفض الذي ينصب الهوية درعاً لاتقاء الخارج ودفع بلائه، ظل الفكر العربي يتأرجح مترنحاً غير قادر على إيجاد مخرج له من هذه الثنائية المستعصية.

1 - 2. ولا نجد مفيداً أن نفصل في الأسباب التي أدت إلى ذلك. لقد أسهب الباحثون في شرحها وتفصيلها وتأويلها⁽¹⁾. ومهما كان الموقف من هذا الشرح أو التأويل، فإن شيئاً واحداً لا بد أننا متفقون عليه، وهو أن الفكر العربي لم يستطع أن يقدم إجابته المغايرة، ولم يستطع أن يرد على النداء الذي أطلقه فرانز فانون إلى مثقفي ومناضلي العالم الثالث قبل وفاته بقليل حيث قال: «هيا أيها الرفاق، لقد انتهت اللعبة الأوروبية فلنبحث عن شيء مغاير».

كان فرانز فانون يتحدث عن الاستعمار الأوروبي وقد بدأت آخر ظلاله بالانحسار عن العالم الثالث. وكان كما غيره يعتقد أن هذا الاستعمار هو وحده المسؤول عن تخلف هذا العالم، لكن الاستعمار ولي، والدول المستعمرة نالت استقلالها، واستقرت السلطات الوطنية في إدارة حكم البلاد ولم يندحر التخلف بل ازدادت الفجوة بيننا وبين العالم الأول. ويشير سمير أمين إلى ذلك إذ يؤكد أن العرب مقارنة بغيرهم من الشعوب يدخلون القرن الواحد والعشرين أضعف مما كانوا حين دخلوا القرن العشرين⁽²⁾.

ربما حالة الضعف هذه لا تتجلى فقط في الأوضاع الاقتصادية والسياسية التي نعيش فيها والتي يشير إليها سمير أمين، بل هي تتجلى بأبهى صورها في غياب الأمل بنهوض جديد، ذلك الأمل الذي رافق صعود الفكر القومي في بدايات هذا القرن.

ونحن نرى أن الفكر العربي لم يستطع أن يقدم إجابته المغايرة ليس لأن «تكوين العقل العربي» قائم على «تمايزات ثابتة»^(*) لا يمكن تغييرها، تستمد أصولها من سماتها الخصوصية الملتصقة بالتكوين العقدي والاجتماعي العربي. ولا لأن الفكر العربي قد هجر أصوله الروحية الثابتة المتعلقة بالدين والعقيدة، كما يدعي السلفيون، فالفكر العربي ليس هو العقل وحده، وليس هو العقيدة وحدها، أي ليس هو أداة التفكير وحدها وليس هو أيضاً النتاج الفكري وحده، لأن الفكر سواء كان أداة التفكير أو بوصفه النتاج الفكري ذاته، هو كما يقول الجابري «نتيجة الاحتكاك مع المحيط الذي يتعامل معه أي

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر: جورج انطونيوس: يقظة العرب، دار العلم للملايين، بيروت 1966؛ وفهمية شرف الدين وآخرون: بحوث في الفكر القومي، جزءان، معهد الإنماء العربي 1985 - 1986. البرت حوراني: الفكر الغربي في عصر النهضة، ط ثالثة، دار النهار للنشر، 1977. زكي نجيب محمود: تحديد الفكر الغربي، دار الأفق، 1978.

(2) سمير أمين: L'Afrique et le Monde Arabe, éd l'Harmattan 1996.

(*) إشارة إلى تكوين العقل العربي لمحمد عابد الجابري.

المحيط الثقافي الاجتماعي خاصة...»⁽³⁾. وعندما نتحدث عن المحيط الثقافي - الاجتماعي، لا بدّ أننا نضع الفكر في قلب التاريخ، والتاريخ العربي ليس سكونياً وكذلك الفكر العربي. لقد حفل تاريخنا العربي بانتصارات وانكسارات، كان هذا الفكر يعبر عنها تعبيراً دقيقاً عبر ترتيب أولوياته؛ ففي لحظات الانتصار، كانت تنتصر لغة التقدم ويتسق القول النظري في معادلات فكرية منطقية وواضحة، وفي اللحظات الحرجة لحظات التراجع، كانت التعبيرات الفكرية تتلعثم أمام العوائق، فتظهر دفعة واحدة مسائل الهوية، وتتقاطع مع أفكار غير متسقة حول الآن، والتاريخ والثقافة والعقيدة والدين.

ولو رصدنا لحظات التاريخ العربي، وأقمنا توازياً مع مراحل الفكر الذي عبّر عن هذا التاريخ بشكل أو بآخر، لوجدنا تماثلاً شبه كامل، بين أنساق التفكير وأولوياته ولحظات التاريخ وتعرجاتها، ولا يعني ذلك ترابطاً ميكانيكياً ساكناً بل هو موقف جدلي يترجم نفسه في لحظات من الاتصال والانفصال بين المفاهيم ومرجعياتها النظرية، وبين الوقائع التي تعدل في مضمون المفاهيم وفي سلم أولوياتها في آن.

وإذا كانت الأسئلة كثيرة ومتنوعة، تغيّر مراتبها بتغيّر أولويات التحديات ومساراتها، فإن سؤالين كبيرين ظلاً يخترقان مجموع الأسئلة والتحديات، ويعبران عن هموم المجتمع العربي وقلقه في آن، هذان السؤالان هما سؤال التقدم/سؤال الحداثة/ سؤال الهوية/سؤال الخصوصية.

2 - سؤال التقدم/سؤال الحداثة

2 - 1. وهو السؤال الأول الذي جابهه العرب غداة اصطدامهم بالغرب. نظر العرب حولهم فوجدوا أنفسهم غارقين في لجة التخلف^(*)، ونظروا أمامهم فوجدوا أساطيل كبيرة تمخر عباب البحر وتذكّ قلاعهم ومدنهم، وأطباء يستطيعون أن يشفوا المرضى، ومطابع تستطيع أن تنسخ بسرعة كبيرة آلاف الصفحات...

وإذا كان التاريخ هنا قد تقدّم بخطى ثابتة نحو مرحلة صعود تمثلت في استلام محمد علي الحكم، فإن الفكر لم يلبث أن واكبه متقدماً بخطى ثابتة نحو إعادة النهوض.

لم ينشغل مفكرو القرن التاسع عشر بهويتهم، بل إن الأولوية في ترتيب المسائل الفكرية أعطيت لفهم كنه التقدم وآلياته، وقد تجلّى ذلك في كتاباتهم وفي مواقفهم من الوافد الجديد.

يقول محمد عمارة في مقدمة التحقيق الذي أنجزه لمؤلفات رفاعة رافع الطهطاوي، «كان الطهطاوي أول عين عربية تأملت في وعي عميق، ومن موقع المحب الناقد،

(3) محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص 12.

(*) انظر، الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار فارس، بيروت، د.ت.

حضارة الغرب الحديثة ممثلة في حضارة الفرنسيين»⁽⁴⁾.

فقد كتب الطهطاوي في كتابه **مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية** يقول: «إن مخالطة الأعراب، لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب تجلب للأوطان المنافع العمومية... والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزيّن العمران... فهم يتعلقون بالحرية، حتى إنه لا تطول عندهم ولاية ملك جبار ولا وزير اشتهر بنهج وجار»⁽⁵⁾.

لقد كان الطهطاوي مطلعاً على الحضارة الإسلامية متشبعاً بها، يعرف لحظات انتصارها ولحظات جمودها، كان يعلم أنّ التفاعل مع الغير أتاح للعصور العباسية أن تكون عصور علم ومعرفة، وأن الانغلاق على الذات داخل سياج الدولة العثمانية أنتج عصور الانحطاط، وأنه لا سبيل إلى الخروج من التخلف إلاّ بفتح الأبواب وإدخال رياح جديدة. ولم تكن الموضوعات التي اختارها الطهطاوي والمفكرون في ذلك العصر سوى إشارات إلى الأولوية المعطاة للتقدم، فكتب الطهطاوي كما كتب غيره في الصناعة والزراعة والثروة، والثورة والعدالة والقانون والمرأة والتربية والتعليم، وكلها موضوعات كانت تشير إلى الحاجة الماسة لتعديل نظرة المجتمع العربي إليها، وهي في الآن نفسه إقرار بأن التقدم موجود عند الآخر الوافد وأنه من الضروري أن نتعلّم معه وأن نحاول نقل ما نستطيع من تجربته علّنا نستطيع تحقيق طموحاتنا في التقدم.

ولم تكن دولة محمد علي ومسارات التحديث التي أرست قواعد هذه الدولة سوى ثمرة لهذه النظرة الإيجابية إلى الآخر، ونتيجة ترتيب الأولويات في المسائل التي شغلت الفكر العربي آنذاك.

لم يلحّ على هؤلاء المفكرين سؤال الهوية، ربما لأنهم كانوا لا يزالون ممثّلين بها، وكانت الأفكار المتولّدة من إشعاعات الثورة الفرنسية لا تزال في أوج انتصارها، ولم تبلغ العدوانية الغربية مداها بعد.

3 - سؤال الهوية/ سؤال الخصوصية

لكن هذه الآمال تبخّرت مع أول صدام للدولة الوليدة مع الآخر، عندما أوقفت الدول الغربية مجتمعة الهجوم الذي قاده إبراهيم باشا لاستعادة المشرق العربي من الدولة العثمانية، على أبواب عكا.

أما هزيمة عرابي فقد كانت إيذاناً بالتحوّل نحو أسئلة أخرى تطرح من جديد المرجعية النظرية للتقدّم على بساط البحث وتناقش مدى ملاءمتها للمجتمع العربي. منذ تلك اللحظة ابتدأت عناصر أسئلة الهوية بالتكوين، من نحن؟ وكيف ندير مسائل التقدّم؟

(4) محمد عمارة: الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر «بطاقة حياة».

(5) الطهطاوي: مناهج الألباب، مصدر مذكور سابقاً، الباب الثالث، الفصل الثالث.

ولماذا تخلف المسلمون وتقدّم غيرهم؟.

ظهر سؤال الهوية في تلك المرحلة مرتبكاً، فلقد ظلّ التقدم شرطاً لامتلاك الهوية موازياً لها، وكان النشاط الفكري الذي قاده محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا ثم الكواكبي ينصب على الموازنة بين التقدم والهوية، فلا بدّ من إيجاد نقاط التقاء بين الإسلام وبين الجديد الوافد إلينا من الغرب...

لكن سؤال الهوية أخذ يتقدّم بقدر ما تتراجع القدرة على إنجاز التغيّر، وبقدر ما تتزايد حدة الهجوم الغربي على عالمنا العربي. ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان سؤال الهوية يتقدّم على كل ما عداه. وانصبّ الجهد الفكري على إيجاد المعادلات النظرية الضرورية للمجابهة الإسلامية ثم القومية، ولم يمضِ النصف الأول من القرن العشرين حتى أصبح سؤال الهوية أساساً نظرياً للمنظومات الفكرية العربية في كل تياراتها الإسلامية والقومية والليبرالية وحتى الماركسية، وتراجع مفهوم التقدم، واستقرت معادلات أخرى في الفكر والسياسة نتيجة لانتعاش الأفكار الاستقلالية بعد الحرب العالمية الثانية. ولن نسترسل في وصف ما حصل، فهناك العديد من الكتابات التي أسهبت في ذكر التفاصيل^(*)، ولن نسترسل أيضاً في وصف النتائج التي ترتبت على هذا التصور، فنحن رافقنا وساهمنا بشكل أو بآخر في النضال تحت راية التصورات القومية التي قادت مشاريع الاستقلال السياسية ومشاريع التنمية المستقلة، وها نحن نعيش نتائجها المأساوية، في الاقتصاد، كما في السياسة، كما في الاجتماع حيث تتراجع قيم التقدم لصالح التقليد⁽⁶⁾. وإذا نظرنا حولنا الآن خصوصاً بعد حرب الخليج وتراجع الفعل السياسي العربي، نستطيع أن نوافق سمير أمين أن العرب يدخلون القرن الواحد والعشرين أكثر ضعفاً مما دخلوا القرن العشرين.

4 - هوية أم تقدم (***) أزمة الفكر العربي الراهن في عالم متغير

4 - 1. كان الفيلسوف الألماني فغنشتاين يشبه حيرة المفكر الواقع في مأزق أو معضلة بذبابة وقعت فجأة في قعر قنينة، راحت الذبابة تتخبّط في قعر القنينة وتضرب في كل الاتجاهات محاولة الخروج، ولكنها كانت تصطدم في كل مرة بجدران كتيمة صماء. وأخذت تدور على ذاتها وتبرم آلاف المرات ولكن عبثاً، وفجأة وكان على غير وعي منها، نفذت الذبابة بضربة واحدة من فوهة القنينة عن طريق انطلاقة ناجحة جاءت بعد آلاف الانطلاقات الفاشلة.

(*) تجدر الإشارة إلى الكتب الكثيرة التي صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية بالشأن القومي. أيضاً: بحوث في الفكر القومي جزءان: فهمية شرف الدين وآخرون، مرجع سابق.

(6) نسمح لأنفسنا برد القارئ إلى كتابنا: الثقافة والأيديولوجيا في الوطن العربي، دار الآداب، بيروت 1994.

(**) إنها المعضلة الأساسية التي لا تزال تلحّ على الفكر العربي حتى الآن وهي جوهر أطروحة زكي نجيب محمود في كتابه تجديد الفكر العربي.

يورد هاشم صالح هذا التشبيه في حديثه عن «الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية والتحديات»، ويعلق على هذا الوصف بقوله «إنَّ الذبابة اهتدت إلى المخرج أخيراً، أما المفكر العربي فلا يزال يتخبط في قعر المعضلة الرهيبة»⁽⁷⁾. ونحن نرى أنَّ المفكر العربي لا يزال يتخبط في قعر هذه المعضلة ليس فقط بسبب من سماكة الجدران وضيق المنفذ، بل أيضاً بسبب من التغيرات المتسارعة للتحديات التي تضيف إلى المشكلات المتراكمة منذ القرن الماضي مشكلات أخرى تتصل بالتغيير الكيفي في النظرة إلى العالم وخصوصيات التقدم التكنولوجي الحالي.

فبينما كانت التحديات في القرن الماضي تنحصر في موضوع «اللاحق» بالتقدم الذي أنجزه الغرب، أو بموضوع «الهوية» بما تحمله من عناصر ثابتة ومتحركة، أضحت الآن في ظلَّ العولمة المتسارعة في العالم تطلُّ الأسس النظرية للإثنين معاً. لم تعد معركة الفكر العربي تطبيق نموذج التقدم فحسب، بل عليه أن يجابه تغيرات تهز أساس الهوية السياسية والثقافية. وإذا كانت المفاهيم السابقة المعتمدة على اللغة والتاريخ التي استخدمها الفكر العربي صالحة حتى الآن، فإنَّ تجاوز العولمة لهذه المفاهيم الكلية نحو تفصيلات جزئية تحيط بالإنسان أينما كان وكيفما كان (الديمقراطية، حقوق الإنسان، الحريات الشخصية، البيئة) غيّرت كلياً أشكال التحديات ومضامينها.

ونحن إذ نستخدم مصطلح العولمة للإشارة إلى الآلية التي يتم وفقها/وبها توحيد العالم، فإننا نحاول التفريق بينها وبين الدولي أو العالمي كمفهوم قديم تأسس مع بدايات التراكم الرأسمالي، وهو بهذا المعنى وصف للحالة التي يحدثها هذا التوسع على صعيد إقامة علاقات عضوية بالتزامن مع توسيع السوق وتعميم علاقاته؛ وما بين العولمة كفعل إرادوي يضيف إلى ما سبق النتائج الفكرية والسياسية والاقتصادية الأخرى التي أرسنها الثورة التكنولوجية الحديثة وثورة المعلومات.

4 - 2. ونزعم أن العولمة بهذا المعنى مجموعة مترابطة تتسم بالموضوعية: مجموعة من النظم الاقتصادية حيث يبدو «السوق» وآلياته الرمز الأول لها مترافقاً مع فتح الحدود التي سحبت الشرط الأول للهوية السياسية من التداول ووضعت فكرة الدولة الوطنية نفسها موضع تساؤل. ومن النظم السياسية حيث تبدو «الديمقراطية» وتعدد الأحزاب وآليات الانتخاب والتعبيرات الأقلاوية هي المكونات الرئيسية لها، ومن النظم الثقافية حيث تكون «نوعية حياة الغرب» وثقافته وقيمه القطب الجاذب للسلوك الاجتماعي المعمم بواسطة وسائل الإعلام والمعلومات.

وتتجه التصورات المرافقة للعولمة إلى الاقتصاد باعتباره المفتاح الأساسي لموضوعة

(7) هاشم صالح: مجلة الوحدة العدد 101 - 102، ص 14.

التجانس Homogénisation. ويرى منظروها أن توحيد الآليات المنتجة للاقتصاد العالمي سيجد بالضرورة صدها في المستويات الأخرى الضرورية للعولمة، أي في التصورات التي تتحكم برؤية المجموعات البشرية للعالم وكيف تتجلى هذه الرؤية في السلوك وفي القيم التي تنظم حياتهم الاجتماعية.

بمعنى آخر، تتكون اليوم منظومة جديدة للأفكار حول قيم الرأسمالية «المنتصرة» ملتصقة بالنموذج الأميركي، وتنتعش فيها بشكل خاص قيم الاصطفاء الطبيعي والبقاء للأفضل باعتبارها الناظم الوحيد لعمليات التقدم، وتتولى وسائل الإعلام تسويق «القيم المنتصرة» للرأسمالية والنموذج الغربي الجديد مستخدمة الثلاثية الملتصقة بها وهي السوق، الديمقراطية ونموذج الحياة المترفة، ومتمكنة في ذلك على الانهيارات السياسية للنموذج الآخر «الاشتراكي» والأفكار التحررية والإنسانية التي سادت على مدى المئة سنة الأخيرة.

ونحن إذ نتحدث عن الفكر العربي في مواجهة العولمة، نتحدث عن هذا المصطلح الجديد باعتباره آلية التطبيق النظري للرؤية الجديدة للعالم، هذه الرؤية التي تعيد تشكيل التحديات القديمة عبر منظومة من الأفكار والقيم والسلوك تجد صداها الإيجابي في جميع أنحاء العالم، فحقوق الإنسان والديمقراطية، وتحسين نوعية الحياة، قيم جاذبة في ظل مناخات الاستبداد والظلم، والفقر، التي تسيطر على مجتمعات العالم الثالث. صحيح أن هذه الدعاوى حول الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، تخضع للشروط الموضوعية التي لا تزال تعمق الفجوة بين العالم المتقدم والعالم المتخلف، لكن إهمال المتغيرات التي هزت المنظومات الفكرية والقيمية لا يؤدي في رأينا إلى فهم خاطئ للواقع العربي وطموحاته فحسب، بل إنه يفقده إمكانيات التجاوز لأن الانغلاق على الذات وممارسة الرفض بحجة صيانة الشخصية العربية، لا تمنع الاختراق المنظم لبنائنا القيمي والثقافي، هذا الاختراق الذي تنتجه وتدعمه شروط التقدم العلمي والتقني الهائل في وسائل الاتصال والإعلام (الأقمار الصناعية، الأنترنت وغيرها).

كما أن القبول غير المشروط لآليات العولمة والتماهي غير المشروط مع الغالب، لا يؤدي في شروط الغلبة الحالية إلا إلى مزيد من ضمور الذات وتهجين المسارات الإنمائية والثقافية والسياسية.

ولن يكون للبحث عن آليات لتجديد تصورات الفكر العربي من معنى، إلا إذا استطعنا تجاوز الرفض الكلي الذي يؤدي إلى الانغلاق والتقوقع الذي تتبناه مجموعات الخصوصية، والقبول الكلي الذي تدعو إليه جماعات «التغريب» باتجاه موقف انتقائي حقيقي يفتح الباب للاجتهاد الديمقراطي في كل المسائل والإشكاليات التي تفرضها التحديات الجديدة على المجتمع العربي، مستخدمين عناصر «الثبات» والخصوصية، في علاقة فعلية وإيجابية مع سمات العصر وخصوصياته.

ما هي سمات هذا العصر، وكيف تُبنى في أفق العولمة الحالية؟ وما هي عناصر الثبات والحركة للمجتمعات؟ وكيف تُبنى في أفق الخصوصية؟.

أ - إذا كانت نقطة الانطلاق في التحليل، الصورة الراهنة للعالم التي تتبدى لنا على مشارف القرن الواحد والعشرين، فإن النظر في سمات هذا العصر، وموقع الفكر العربي فيه وموقفه منه لا بد أن يتم من زاويتين:

الأولى، وهي العولمة حيث نبني في أفقها ومعها مجموعة المعايير والقيم وأنماط السلوك الثقافية التي تشكّل الإطار الفعلي للرؤى الجديدة للعالم، كما تشكل الإطار النظري لمفهوم الهيمنة بالمعنى الذي صاغه غرامشي؛ فرؤى العالم التي ترسم أفق الحياة والموت والسعادة والحب والخوف والنجاح والفشل، تتقدّم من جميع المجتمعات الإنسانية وكأنها نموذج موحد ووحيد وما على هذه المجتمعات سوى تحقيقه أو تقليده. وتساعد وسائل الإعلام وطرق المعلومات الحديثة هذا النموذج على اختراق أسوار البنى الذهنية والاجتماعية، والخصوصيات الحميمية للأفراد والجماعات.

أما الثانية، فهي الخصوصية حيث تنبني في أفقها ومعها مواقف الدفاع عن الذات والرفض، مع كل ما تحمله هذه المواقف من إشكاليات تتعلّق بتحديد أليات الدفاع وأشكالها وتحديد مساحات الرفض وكيفيات صياغة الأهداف، من أجل تجاوز هذا الرفض وعبور مساحات السلب التي تغلف مفاهيم الرفض والخصوصية معاً.

وهنا تتبدى «حيرة» الفكر العربي وقلقه أمام الوافد الجديد «العولمة»: فالقبول مشروط بالاستسلام الكامل للنموذج ولعناصر العولمة الاقتصادية وأشكالها وقيمها الثقافية، وهي، أي العولمة، بهذا المعنى مغرية جداً في مناخ عربي يتّسم بالاستبداد والقمع، ولا تشكّل حقوق الإنسان والديمقراطية جزءاً من قيمه وتقاليد العامة.

أما الرفض فهو يتعامل مع موضوع العولمة بشكل استنسابي، فهو يرضى بالتغيرات التي فرضت شكلاً وحيداً للأنظمة الاقتصادية والاجتماعية، لكنه يتوقّف بشكل عصبوي أمام منظومة القيم الأخرى الإيجابية منها والسلبية، خصوصاً تلك المتعلقة بحقوق الإنسان وديمقراطية المشاركة بخاصة حقوق المرأة ومشاركتها في الحياة العامة، وحرّيات التعبير، والرأي والحرّيات الشخصية. وهي في رأينا التحديات الحقيقية التي تواجه هذا الفكر.

كيف يتعامل الفكر العربي مع هذه التحديات؟

4 - 3. إن التعامل مع مفهوم العولمة، لا بد أن يأخذ بالاعتبار حقائق موضوعية تتجاوز الصراع الأيديولوجي، فالعولمة بما هي مؤسسة على جملة من الشروط والوقائع المادية ليست مفهوماً فوقياً، بل هي ممارسة فعلية للنتائج التي أرسنتها مسارات الصراع السياسي والعسكري والفكري. ولعلّ انهيار المقاصد التي نشأت في رحم دولة الاستقلال هو البداية الفعلية للوضع الراهن الذي تتخبط فيه المجتمعات

العربية⁽⁸⁾، وفي هذا السياق يبدو الرفض الذي تمارسه الجماعات التي تتمسك بالخصوصيات باعتبارها درعاً لدرء أخطار الخارج، لا يتجاوز حدود ردود الفعل ولا يستطيع بالتالي إيقاف العولمة التي تستخدم كل الآليات التي أنتجتها الاجتهادات الفكرية المواكبة لها، وأهمها استيعاب الخصوصيات.

إن الملاحظة التجريبية الأولى في هذا الموضوع تشير إلى الأحداث المتلاحقة التي تؤكد على وحدانية المرجعية في المرحلة الراهنة، وإن كانت هذه الملاحظات غير مكتملة وقابلة للاختزال أو التعديل،⁽⁹⁾ فإن المؤشرات الفعلية لهيمنة عالمية أميركية الطابع تتبدى بقوة في جميع المستويات: في المستوى العسكري حيث يتخذ التدخل العسكري الأميركي شكلاً سافراً تحت علم الأمم المتحدة. ولا نستطيع قراءة النتائج السياسية لحرب الخليج الثانية إلا في علاقتها بالاتجاه نحو تأكيد وحدانية المرجعية العسكرية، وفي المستوى الاقتصادي، تبدو مسائل المساعدات الخارجية، والديون ودولة الاقتصاد العالمي التي تجعل من مفهوم «التصحيح الهيكلي» المفضي إلى تخطي الدولة عن دورها الرعوي على المستوى الاجتماعي، وإلى تكريس آليات السوق على المستوى الاقتصادي، أساساً نظرياً لتحديد المسافة من الازدهار والتقدم في ظل انهيار النموذج الآخر الاشتراكي؛ ولا يستقيم الحديث عن هذه المستويات أو يتأكد دورها وأهميتها إذا لم تتوَج جميعها بوحدانية النمط الثقافي.

وُستُخدم من أجل ذلك كل الوسائل التي أنتجتها ثورة الاتصالات حيث يعمم بواسطة الأقمار الصناعية نمط الحياة الأميركية الرغيدة في ظل التنافس على السلطة والمال، وحيث يُشرَع مفهوم الاستغلال ويصبح متكافئاً مع النجاح، أما نمط العلاقات الاجتماعية التي يفرزها هذا النظام ودرجة العدوانية التي تنساب بين الأطراف المتنازعة والمتناحرة على الدوام، فتبرزها مفاهيم النجاح والفشل في ثنائية أبدية ترتكز على مفهوم الاصطفاء الطبيعي والمميزات الشخصية. وهذا يعني عودة إلى التمايز على أساس العرق أو المولد الذي عدلت من غلوائه فلسفة عصر الأنوار والتراث الإنساني النهضوي.

ولا جدوى من الإشارة إلى ظروف وملابسات نجاح العولمة في إعادة تقديم النموذج وكأنه النموذج الوحيد للتقدم في بلادنا، إذ يكفي أن نتذكر الماضي القريب. وهناك محطات رئيسية تسهل عملية الفهم لأسباب النجاح هذه، أكان ذلك من الخارج حيث تلعب أليات الهجوم دورها المتميز في علاقتها بالوقائع العالمية المتغيرة على الدوام/ أم كان ذلك في الداخل حيث تزدهر أليات الانكسار المؤسسة على مسافة كبيرة

(8) لمزيد من التفاصيل، انظر: مستقبل الأمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1988.

(9) تشير هنا إلى الحديث عن النموذج الياباني، أو الصيني... الذي لا يخرج عن النموذج الرأسمالي المعولم، انظر سمير أمين: بعض قضايا المستقبل... دار الفارابي، بيروت، 1991.

في درجات التطور والتقدم(*).

ويكفي أن نستعيد أزمنة النهوض والانكسار في التاريخ العربي الحديث، وأن نتذكر أن مثني عام من النضال من أجل التقدم أسفرت عن استقلال شكلي بعد الحرب العالمية الثانية فقط(**).

4 - 4 - الخصوصية: سماتها وأشكالها:

إن قراءة الواقع والتسليم به، أي القبول بالتحولات العميقة التي هزّت المنظومات الفكرية والاجتماعية السائدة في العالم وأيضاً في وطننا العربي، لا تعني اعتبار هذا الواقع ثابتاً لا يتغير أيضاً، فقراءة التاريخ تشير إلى سيادة مفهوم التغير. وبالتالي فإن قراءة الواقع كما هو، تعني بالتحديد محاولة للتعرف عليه من داخل، وفهمه وتفكيكه، وذلك لاستنفار العناصر الإيجابية التي يمكن استثمارها لبناء «بديل نظري» آخر يستلهم خصوصيات الشخصية التاريخية العربية(***)، وخصوصيات الوطن العربي الجغرافية والطبيعية دون أن يهمل التحديات العصرية الراهنة التي تستخدم العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية من أجل بناء حقل تحركها الفاعل.

فليس المطلوب إقامة سور منيع حول الثقافة العربية للحؤول دون اختراقها أو تفتيتها كما أن ذلك ليس ممكناً أيضاً، بل المطلوب هو تأهيل وتجديد للفكر العربي بالتركيز على العناصر الأساسية والإيجابية فيها والتي تسمح بأن يكون لهذا الفكر دور وموقع في ثقافة العصر.

وإذا كانت المتغيرات السياسية والعسكرية قد أدت إلى تعميق مفهوم الانهزام لدى الشعب العربي، فإن استثمار العوامل الروحية واتساع المدى الذي تشغله في الثقافة العربية يمكن أن يوظف في صالح تعميق دور هذه الثقافة وتأصيله.

إن خطر الاستلاب يزداد ويتعمق في ظل التقوقع والانغلاق لأنه يتوقف عند حدود الرفض. ونزعم أن الحركات الاحتجاجية التي تبرز من وقت إلى آخر، أو التي تتحول إلى حركات سياسية تنهل من الدين أو من التاريخ وتستعين بهما في بناء مشروعاتها السياسي، تستبقي المستقبل أسيراً للماضي، لأن «العودة إلى الذات» التي تشكل عنوان هذه الحركات الاحتجاجية لا تتجاوز الفهم السائد للعلاقة ما بين الذات والآخر التي أنتجت مرحلة التناقض السياسي السابقة، وبالتالي فهي لا تنبني في حدود المعارف العلمية الجديدة التي أرسنها الثورة التكنولوجية الحالية وتطبيقاتها الاجتماعية، كما أنها

(*) نستطيع أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر: بدء الهجوم الاستعماري الغربي مع بونابرت، إجهاض ثورة عرابي، إجهاض الثورة العربية الكبرى، هزيمة المشروع الناصري.

(**) سمير أمين: نقد الدولة الوطنية، مركز البحوث العربية، القاهرة 1992.

(***) نعطي الخصوصية التاريخية معنى متغيراً، ونصفها بالتاريخية، لإدخال مفهوم التغير عليها.

لا تأخذ بالاعتبار التحديات العصرية الأخرى، أي التناقض الرئيسي في مستويات الاقتصاد والسياسة التي حوّلت العالم إلى مدينة دون حدود فعلية أمام انتقال رؤوس الأموال، وتحاول الآن تحويله إلى مدينة واحدة تتجانس فيها الأذواق والقيم، والعادات والسلوك وحتى الروائح والألوان... كما أننا نعلم علم اليقين أنّ الوجه الآخر، أي الاندماج الذي ينطلق منظره من تأييد الوقائع الحالية ويروج للاندماج في النظام العالمي الجديد والذوبان في الآخر، لا يؤدي إلى تنمية الشخصية العربية وتدعيمها. ونزعم أن رؤية أخرى للواقع العربي لا تنطلق من الرفض الكلي، وتتعامل مع التحولات الكيفية في النظام العالمي بشكل إيجابي هي مسألة ضرورية ومفيدة. فالأخطار تتضاءل أكثر إذا ما تجاوزنا الرفض الكلي نحو تأصيل ثقافة عربية سمتها الديمقراطية تتعامل مع الرفض والقبول بشكل دياكتيكي، وصفتها المواجهة، تعي جيداً المخاطر الحقيقية التي تنبني في إطار العالمية الوجدانية القطب.

إن موقع الفكر العربي الآن وسط هيمنة الصورة الحالية للثقافة العالمية الطابع، يزداد حرجاً ويزداد معه الإلحاح للنظر في هذا الموضوع بقدر ما تتضاءل صورة الذات العربية في ظل الانكسارات السياسية التي تواجه الوطن العربي اليوم.

5 - تجدد الفكر العربي بتجديد قضاياها

في كتابه الاستعداد للقرن الواحد والعشرين، يحاول بول كندي تثبيت مقولات العولمة، عبر تثبيت عناصرها الموضوعية، ويرى أن أهم هذه العناصر، هي التحديات التي تواجه العالم في جميع أنحائه، وفي مختلف درجاته ومستوياته، فيقدم هذه التحديات باعتبارها تحديات قديمة/جديدة، ولكنها وتحت تأثير الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال والإعلام أصبحت تطال جميع شعوب الأرض قاطبة وإن بدرجات مختلفة، ويعتبر بول كندي إن العالم يواجه خمسة تحديات:

- 1 - تحدي الانفجار السكاني.
- 2 - تحدي ثورة الاتصال والمال ونشوء الشركات متعددة الجنسيات.
- 3 - الزراعة العالمية وثورة التكنولوجيا الحيوية.
- 4 - الإنسان الآلي والامتة والثورة الصناعية الجديدة.
- 5 - المخاطر على بيئتنا الطبيعية⁽¹⁰⁾.

أما سمير أمين، فهو لا يوافق على عولمة هذه التحديات، ويرى بأنها احتكارات خمسة للعالم الأول، وأن العولمة لم توحد التحديات، لأن تحديات العوالم المختلفة لم تبلغ مستوى من الترف لتتوحد مع العالم الأول، فلا تزال هذه العوالم تواجه تحديات

(10) بول كندي: الاستعداد للقرن الواحد والعشرين، ترجمة محمد عبد القادر وغازي مسعود، دار الشروق، 1993.

التحرر والتنمية وإقامة دولة العدالة والمساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان⁽¹¹⁾.

ودون الدخول في نقاش صَحّة الفرضيات التي يقدمها بول كندي ويدحضها سمير أمين، فإن الواضح الذي لا لبس فيه هو أن الفكر العربي، بجميع مستوياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والفلسفية، لا يساهم بصورة جدية في نقد أو رُفد هذه الأفكار، لأن النقد الذي هو الخطوة الأولى في تفكيك الإشكاليات المحيطة بنا، ينصبّ على مشكلات مجردة وإشكاليات مطلقة. فنقد العقل موضوع في غاية الأهمية لكنه لا يتوازى بأهميته مع نقد إشكاليات معقدة لا تزال محاطة بأسوار الممانعة والتقليد، كإشكالية المرأة مثلاً ووضعيتها ومكانتها في المجتمع العربي، ونظام القيم الأبوية الذي يسود الحياة الاجتماعية، ومفهوم الطاعة الذي يسيطر على الحياة السياسية والاجتماعية وتغذية النظرة التربوية التقليدية...، هكذا يستبعد النقد أي نقاش حول الديمقراطية وحقوق الإنسان وتحرير المساحات الاجتماعية الشخصية أو المعوقات أمام هذه القضايا.

وإذا كنا نستطيع أن نقول مع هشام شرابي «أن هناك بدايات لحركة نقد حضاري تنمو وتزدهر اليوم في المجتمع العربي»، فإن هذه الحركة لا تزال حذرة، وخجولة في أكثر الأحيان، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالنقد الجدي للحياة الاجتماعية العربية.

إن مسؤولية المفكرين والمثقفين عن تعميق النقاش حول «القضايا الجديدة/ القديمة» تلك الأمثلة التي واجهها مفكرو عصر النهضة، هي مسؤولية كبيرة، وقضية الحدّات وآليات التغيير في المجتمع، وتحديد آليات الانتظام المجتمعي وفعاليتها، وأنظمة القيم الأبوية وتأثيراتها على مسارات الاجتهاد والإبداع، لا بدّ أن تتحرر من مناخ السجال المتمحور حول الخصوصية والهوية، لتتقدم باعتبارها إشكاليات اجتماعية وهي الموضوعات الحقيقية للنقاش الحر والتفاعل المستمر بين المفكرين والمثقفين وجميع الأحزاب والتجمعات والقوى الاجتماعية، كما هي موضوعات النقاش بيننا وبين العالم، فالخصوصية بما هي إطار لتشكّل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ليست من المحرمات ونقاشها في الداخل والخارج يضفي عليها البعد الموضوعي اللازم من أجل الاحتفاظ بها وتطويرها.

إن ما يحدث في العالم اليوم هو بداية لعصر جديد، وممارسات اجتماعية جديدة ترفض كل أنواع الهيمنة والأبوية، الفلسفية منها والإيديولوجية والدينية، وترجع النقاش إلى أحضان الحوارات الأفقية بين الفئات والجماعات التي يتكون منها المجتمع. وعلينا أن نفيد من هذا المناخ، ليس من أجل زيادة انغلاقنا على قناعاتنا الخاطئة منها أو الصائبة، بل من أجل زيادة تفاعلنا مع غيرنا باعتبارنا متكافئين في المسؤولية والجهد.

إن أي كلام على مواجهة ما يجري في العالم، لا يمكن أن يكون مفيداً إذا لم يُبنى على فهم حقيقي لواقعنا وللوقائع العالمية، فتجديد الفكر العربي مرهون بتجديد قضاياه، وقضاياه القديمة/الجديدة لا تزال بحاجة إلى الفهم والمناقشة، فالهوية والخصوصية ليست قضايا للحل، بل هي إطار نظري لجميع الإشكاليات والأسئلة. أما مفهوم التقدم فلم يعد إطاراً نظرياً كما كان سابقاً يسبق كل نقاش أو سجال فكري، لقد تشظى هذا المفهوم في موضوعات تفصيلية، هي التي يجب أن تحظى بأولوية النقاش: بدءاً من تحسين نوعية الحياة، إلى الحفاظ على الموارد، وتنمية القدرات البشرية، وتأمين العدالة بين الجنسين المرأة والرجل، وتكافؤ الفرص للإنسان بصرف النظر عن العرق أو الدين أو الطائفة، أما قضايا الحرية الديمقراطية وحقوق السلطة وأنظمتها وأجهزتها فلا بد أن تكون موضوعات جدية من موضوعات فكرنا العربي. وليس في ذلك تضخيم لدور الفكر أو المفكرين، بل تحميل المفكرين والمثقفين مسؤولية أدوارهم التي ارتضوها عندما اختاروا مهماتهم: فإذا كان كل إنسان مفكراً كما يقول غرامشي، فإن ما يضيف أهمية على المفكر هو الدور الذي يقوم به المفكر، فالمفكرون لا بد أن يساهموا في بناء بدائل قيمية وثقافية لكل ما ثبت عجزه حتى الآن، مستفيدين من التراكم المعرفي والخبرات السياسية والاجتماعية التي أنجزها الفكر العربي في تاريخه القديم والحديث: على أن لا نهمل المتغيرات التي هزت العالم على أبواب القرن الواحد والعشرين: ولا بد أن ننظر إلى هذه المتغيرات باعتبارها «جديداً معرفياً» يتأسس على تراكم المعارف والعلوم وتطبيقاتها الاجتماعية، وليست مناخاً سياسياً قابلاً للتغيير والتبديل فحسب، فإذا كانت الظرفية السياسية الحالية، أي مرحلة ما بعد الحرب الباردة وتحول العالم إلى عالم أحادي القطب، هي مرحلة عابرة كما نراها في التاريخ السياسي، إلا أن الاتجاهات الفكرية التي أرسنها هذه التغيرات، أي انهيار المصادقية لأنظمة الفكر الشمولية مهما كانت وجهتها ليست عابرة، وستترك بصماتها على كل تحليل فكري أو اجتماعي أو تأويل سياسي.

ولا بد أن نواجه الآخر بموقف ذاتي ينبع من النقد الحضاري الذي يخترق مستويات الممارسة السياسية، وما يتفرع عنها من قضايا الحق في الاختلاف والتعدد واحترام الآخر، وتداول السلطة، وتجذير الممارسات الديمقراطية وتوسيع حدود الحريات الشخصية، ويخترق بالقدر نفسه الممارسات الاجتماعية، ويسمح بإعادة النظر بالمجتمع الأبوي المبني على الطاعة وسيطرة الأقوياء على الضعفاء والرجال على النساء، وإعادة النظر أيضاً بقيم الثروة والسلطة، كما يسمح بالقدر نفسه، بإعلاء شأن القانون الذي يساوي بين المواطنين انطلاقاً من شرعة حقوق الإنسان.

فالحاجة ملحة كما نرى إلى تعديل جذري في طرق المواجهة مع العالم «الآخر» لأن الإصرار على تجاهل ما حصل وما يحصل، والاستقواء خلف جدار الدفاع عن الذات والهوية لتجنب إعادة النظر المطلوبة في التيارات الفكرية سواء كانت ليبرالية أو قومية

أو ماركسية أو إسلامية، سيؤدّي في رأينا إلى تشديد الممانعة ضد «الجديد المعرفي» فقط فيما يساهم التجمد والانغلاق على الذات في توسيع رقعة القبول «بالتجديد الاقتصادي» المفروض علينا بالقوة، وعلى هذه الصورة تُبنى سجلات الفكر الذي يؤسّس للقبول غير المشروط للفكر السياسي/الاقتصادي فيما يتم تشديد الرفض ضد المستويات المعرفية الجديدة.

لقد آن الأوان لأن يتموضع الفكر العربي في هذا العالم وبه ومعه، فيساهم في إنتاج رؤى جديدة له وللعالم الذي يدعي العمل عليه والتأمل به، وأن له أن ينتج تصورات جديدة للحياة الاجتماعية العربية، تسمح بتشكيل البنى الذهنية وفق معطيات خصوصية لا بد منها، لكنها تنسجم مع مناخ العصر وتعتزف بالزمن الوضعي المتغيّر، وتعيد للوجود معناه الحقيقي.